

(ثم) العاطفة وافادتها الاستبعاد في الدلالة القرآنية

أ.م.د حسين خضير عباس

الخلاصة

يهدف البحث الى ابراز المعنى الدلالي لـ (ثم) العاطفة، وانها تفيد معنى الاستبعاد ، وان ما بعدها مستبعد لما قبلها ، هذا وقد فرق البحث بين معنى الاستبعاد وهو محل البحث ، وبين معنى البعد ، وهو الدلالة على ان الامرين من جنس واحد ، بيد ان ما بعد (ثم) اعلى مما قبلها ، وهو غير مراد هنا ، بل المراد ان ما بعدها لا يمكن وقوعه بالمرّة بعد تحقق ما قبلها، وشرع البحث في بيان هذا المعنى من خلال نصوص الكتاب العزيز ، وهذا المعنى قد تفتن له الزمخشري ، في حين ان ابا حيان قد نفى وقوع مثل هذا، لكنه (رحمه الله) محجوج بالأدلة المتضافرة وهذا المعنى لا ينافي معنى العطف والتراخي الذي فيها بل يتناغم معه.

(Then) Emotion and its Benefit in The Koranic Significance

ABSTRACT

The research aims at highlighting the semantic meaning of (and then) emotion, and it is useful for the meaning of exclusion, and what follows is excluded before it. The difference in research between the meaning of exclusion, which is the subject of research, meaning the dimension, (And then) higher than before, which is not intended, but what is beyond that cannot occur at all after the verification of what preceded it, and proceeded to search the statement of this meaning through the texts of the book dear, and this sense may be aware of Zamakhshari, while Abba Hayyan has denied such a occurrence, but he (may God have mercy on him) is clogged with concerted evidence and this meaning does not contradict the meaning of compassion and laxity, Communicate with him.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه المخلصين. اما بعدُ

تعدد معاني القرآن الكريم يعد احدى معجزات البلاغة القرآنية؛ اذ اعجاز القرآن يكمن في ايجازه، وهذا هو السر في ان الاعداء لم يفهموا كنهه فطفقوا يشككون وينكرون؛ لذا هناك ادوات في القرآن الكريم يتوقف فهم الدلالة القرآنية على معرفتها، فيتحم التأمّل في الكلام، فقد يؤدي الاختلاف في دلالة الحرف الى الاختلاف في الحكم، فحروف المعاني دخلت ضمن اهتمامات البحث اللغوي عند العرب .

موضع البحث

هو دراسة حول دلالة حرف العطف(ثم) وإفادته لمعنى دقيق وهو المعنى الاستبعادي، وهذا المعنى قد وجدته في بعض النصوص القرآنية، فرجعت الى كتب التفسير والدلالة القرآنية ومعاني القرآن، فأثبت هذا المعنى وبرزته بالأدلة .

الدراسات السابقة

لم أجد احداً افرد هذا المعنى لـ (ثم) بالدراسة فيما اطلعت عليه؛ لذا افردت هذا المعنى، وذكرت الادلة القرآنية، وناقشت من خالف ذلك، وهو الشيخ ابو حيان صاحب كتاب (التفسير المحيط).

مشكلة البحث

هل تأتي (ثم) في موضع تتعين فيه للاستبعاد ؟، وهل هناك شواهد من الكتاب العزيز يثبت هذا المعنى؟، وهل أثبت هذا المعنى طائفة من المفسرين والنحاة؟.

خطة البحث

تقومُ البحث من مبحثين، فكان الاول منهما مكوناً من مطلبين، ففي الأول تحدثت فيه عن مفهوم الاستبعاد في (ثم) ودلالة ذلك، وان هذه الدلالة فيها لا تنافي معناها الاصلي بل تساوقها وترافقها، وان في دلالة (ثم) هذا تضيف معنىً ترابطياً في تحقيق هذا المعنى، وان افادة هذا المفهوم يكون بالأداة نفسها بالسياق، اي: وان حفتها بعض القرائن السياقية، وفي المطلب الثاني بينت ان ابا حيان الاندلسي صاحب التفسير الشهير أنكر هذا المعنى الاختصاصي لـ(ثم) واوكله للسياق، وفي المبحث الثاني تكلمت عن الادلة القرآنية التي أثبتت هذا المعنى مع التركيز على ان الاستبعاد متأث من مفهوم الاداة لا كما ذهب اليه الشيخ؛ لذا ناقشت الشيخ أبا حيان فيما استند اليه، وبينت نقاط الوهن التي غابت عنه(رحمه الله)، وفي الختام ذكرت النتائج التي تمخضت من البحث، ثم الحققت سرداً للمصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها مرتباً اياها حسب حروف الهجاء، وأخيراً اشكر الله تعالى ان اعانني في جمع هذه الفكرة ولم شعثها عسى أن اكون ممن شملتهم عناية الله وحفظه، وخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على أشرف خلقه محمد وعلى آله الطيبين وصحبه المنتجبين.

المبحث الأول

معنى الاستبعاد ووجه الاعتراض عليه

المطلب الأول: معنى الاستبعاد في (ثم)

من المعلوم ان (ثم) أحد حروف العطف ، ويتعدد مدخولها فهي حرف عطف لجملة على جملة ، او لفعل مجزوم بـ (لم) وعاطفة على فعل الشرط ، وعلى جواب الشرط ، وعاطفة الفعل على اسم الفاعل ، وعاطفة للجار والمجرور، وهذه المواقع لا غبار في وقوعها بها، ومعنى الاستبعاد هو كون مضمون ما بعد (ثم) عن مضمون ما قبلها، وهو ما يعبر عنه بالتفاوت مابين المرتبتين ،وهو فرع التراخي ومجازه وله ملحظ دلالي بلاغي،⁽¹⁾ ولإثبات هذا المعنى يمكن إثبات ما يلي:

أولاً : هذا المعنى لا يتعارض مع كونها في أصل معناها تأتي للترتيب والتراخي ؛ لان معناها الاستبعادي ناشئ من تحديد دور المعنى في نظرية النحو ، وهذا الأمر يجب أن لا يتعاقل ، ويجب أيضاً توسيع دائرة النحو المضيق ؛ لان المشكلة أننا نتصور أن الغاية من النحو العربي هو تصويب الكلام وما يحفه من الإعراب والبناء فحسب ؛ لان النحو كما يفيد في صحة الكلام عربية أيضاً تتجلى أهميته في تفسير النصوص وإيضاح دلالاتها ؛ فلا بد من إيصال علم النحو إلى علم المعاني ؛ للاتصال الوثيق بينهما ، لذلك ينبغي أن نتجاوز مسألة الصواب والخطأ في النصوص ، وننتقل إلى مسألة الأثر في المعنى ، وما أحسن ما قاله الأستاذ احمد شاکر : ((أما (ثم) فهي بطبيعتها تحمل معنى الحركة والتتابع بلا نظر إلى الزمن المفيد ... أما ما يقوله النحاة في (ثم) من أنها حرف عاطف يقتضي الترتيب والتراخي والمهلة فهو نظر نحاة يحتاج إلى بيان⁽²⁾، ومما يجدر ذكره أن الأدوات لها ضمام ، فتتطلب بعدها شيئاً بعينه فتكون قرينة متعددة الجوانب الدلالية ، فتكون بمعناها الوظيفي وبموقعها وبتضامنها مع الكلمات الأخرى ، مما يجعلها في التعليق النحوي قرينة لفظية مهمة جداً⁽³⁾.

والقول بكون (ثم) للاستبعاد يتلاءم مع كونها للربط بين أجزاء الكلام ، وللدلالة على معاني المفردات التي يحتاجها المفسر لاختلاف مدلولها كما ذكره الزركشي⁽⁴⁾، وللدلالة على المعاني في تفسير القرآن الكريم ، وأثرت تفسير كتاب الله - عز وجل - بمعان مختلفة ، وجانب آخر يقوي خروج معناها إلى الاستبعاد وهو أن الكوفيين والاخفش من البصريين ذهبوا إلى أن (ثم) قد تأتي زائدة فلا تكون عاطفة البتة، وخرّجوا على ذلك قوله تعالى: ((حتى اذا ضاقت عليه الارض بما رحبت وضاقت عليه أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه))⁽⁵⁾، التوبة: 118، فهي تخرج إلى دلالات أخرى بذاتها لا بالسياق كما ذهب ، فهي تأتي للتباين في الصفات وغيرها من غير قصد مهلة زمانية بل ليعلم موقع ما يعطف بها، وحاله وان له لو انفرد لكان كافياً فيما قصد فيه ، ولم يُقصد في هذا ترتيب زمني بل تعظيم الحال فيما عطف عليه وتوقعه وتحريك النفوس لاعتباره ، فان قيل :معنى الاستبعاد فيه غرابة ، فالجواب عن ذلك انه شائع في الحروف ذاتها فلا معنى لنفيه في الحرف وإثباته في السياق فقط فحسب كما ذهب إلى ذلك أبو حيان في (البحر) ، كما سيتم مناقشة قوله فيما بعد إن شاء الله، فمثلاً نجد أن (إن) الشرطية تفيد عدم القطع بوقوع الشرط في المستقبل أي: الاستبعاد، و(إذا) تستعمل للجزم في الوقوع في المستقبل ، كما في قوله تعالى: (فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) الاعراف: 131،

(الحسنه) هنا بمعنى النعمة ، فجاءتهم النعم بإشكالها كلها ، وأما (السيئة) فهي بمعنى الجذب والقحط ، فان قلت : كيف قيل : (فاذا جاءتهم الحسنه) ، ب(اذا) وتعريف الحسنه ، (وان تصبهم سيئة) ، ب ، ، ، ب (إن) وتتكبير السيئة ؟ قلت : لان جنس الحسنه وقوعه كالواجب لكثرة واتساعه ، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ، ولا يقع إلا شيء منها)⁽⁶⁾ ، وهذا قليل وقوعه إزاء النعم عليهم ، فلا مسوغ لإنكار أبي حيان الاستبعاد في معنى الحرف ، ومثل هذا ينطبق على (أنى) إذا كانت بمعنى (كيف) كما في قوله تعالى : ((انى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون)) الدخان : 13-14 ، أي : استبعاد الإعراض عن الرسول (صلى اله عليه واله وسلم) بعد مشاهدتهم العظائم الموجبة للإقبال ، والحال أن رسولا مبيناً قد جاءهم بالبينات⁽⁷⁾ كما أن (ثم) هذه الاستبعادية تفيد الترتيب الرتبي ؛ لان شأن المسبب أن يتراخى عن السبب كقول القطامي :

أكفراً بعد ردّ الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا⁽⁸⁾

أي : كيف اكفر نعمتك ، أي : لا أكفرها مع انجائك لي من الموت ... الخ⁽⁹⁾ ، وإنكار معنى الاستبعاد في (ثم) لا معنى له ، فقد ذكر الزركشي أن الكاف في قوله تعالى (أرأيتمكم)⁽¹⁰⁾ مع إفادتها للخطاب فهي تفيد الاستبعاد بهلاكهم⁽¹¹⁾ ، ومن الجدير بالذكر انه لا بد من التفريق بين معنيين (البعد والاستبعاد) ، فما يريده الباحث هو إفادة (ثم) لمعنى الاستبعاد لا معنى البعد بين أمرين ؛ لأنها تأتي دلالاتها للبعد بين الأمرين ، ومعنى ذلك أن الأمرين من جنس واحد ، ولكن ما بعد (ثم) أعلى مرتبة في هذا الخبر وابلغ مما قبلها ، فليس بين الأمرين منافاة كما في الاستبعاد بل بينهما تفاوت ، وهما من جنس واحد ، كما في قوله تعالى : (ولو انزلنا ملكاً لقضي الامر ثم لا ينظرون) الانعام : 8 ، فمعنى (ثم) هنا للبعد بين الأمرين (قضاء الأمر وعدم الانظار) لا للاستبعاد ، فجعل تعالى عدم الانظار اشد من قضاء الأمر ؛ لان مفاجئة الشدة اشد من الشدة نفسها⁽¹²⁾ ، أما الاستبعاد فهو أن يكون ما بعد (ثم) مستبعداً بالنسبة لما قبلها ، فيجب ملاحظة الفرق الدلالي بين المعنيين لما له من اثر على المعنى التفسيري ؛ لذا فان الرضي حكم على قوله تعالى : ((وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)) [هود : 3] ونظائرها ، فقال : ((... مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلها ... ، فان بيين توبة العبد وهي انقطاع العبد إليه بالكلية وبين طلب المغفرة بوناً بعيداً))⁽¹³⁾ ، والظاهر ان الآية الكريمة هنا ليس فيها استبعاد بل فيها بعد ؛ لان الاعتراض بفساد ما هم عليه من عبادة الأصنام أهم من طلب المغفرة ؛ فان تصحيح العزم على عدم العودة إليها هو مسمى التوبة⁽¹⁴⁾ ، قال السمين الحلبي : (قلت : معناه : استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ، أو استغفروا ، والاستغفار توبة ، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها))⁽¹⁵⁾ ، فعند السمين الحلبي أن (ثم) هنا على بابها للتراخي ، نعم في كلام ابن عاشور إشعار بأنها تفيد الترتيب الرتبي ، لكن الاستبعاد غير موجود في الآية الكريمة ، بل معنى البعد متحقق فيها ، بله الاستبعاد ايضاً ؛ لان عبادة الله - عز وجل - تلزم البعد عن عبادة الشيطان واستبعاده ؛ لذا جاز النص بتقديم الاستغفار على التوبة ؛ بيانا لكون التخلي قبل التحلي ، وجعل الفراء كما نقله البغوي (ثم) هنا بمعنى (الواو) أي : لمطلق العطف بدون ترتيب ولا تراخي معنى⁽¹⁶⁾ ، وهو كما ترى ، ومن نافلة القول ان حروف المعاني في العربية لها دور كبير في تفسير معاني الجمل وإضافتها معنى جديداً كالحروف الناسخة مثل (إن وأخواتها) ، فالجمل قبل دخول هذه الأحرف تحمل حكماً مسنداً إلى اسم قبله نحو (محمد ناجح) ، فلما دخلت هذه الأحرف أصبح المعنى مؤكداً غير قابل للشط من قبل المستمع ، ولو استبدلت (إن) ب (أن) لكانت الجملة ناقصة المعنى ، فتطلب فعلاً قبلها أو ما في معناها نحو (علمت أن محمداً ناجح) ، وصارت الجملة مؤولة بمفرد معمول لما سبقها ، والمعنى علمت نجاح محمد ، ولو دخلت (ليت) لتحول الكلام من معنى محصل إلى معنى يتمنى المتكلم حصوله ، وأحياناً الحرف كفيل بتحول المعنى من الإخبار إلى الإنشاء كما في (ليت ولعل) ، ومما يدل ويثبت ذلك أن الفعل الضارع ، فإنه إذا خلا من الناصب والجازم فهو دال على زمني الحال والاستقبال ، وإذا دخلته (لن) فإنها تحصله للاستقبال ، وإذا دخلته (ما) فإنها تخلصه للحال ، فمعنى ذلك أن حروف المعاني دوال لا يمكن التفاضل عنها ؛ لذلك فـ (ثم) لها هذا المعنى⁽¹⁷⁾ ، فالنسق تتضافر فيه قرينة التبعية وقرينة الأداة ومطابقة الحركة⁽¹⁸⁾ .

المطلب الثاني: اعتراض أبي حيان على معنى الاستبعاد في (ثم)

فإن قيل : استشكل أبو حيان معنى الاستبعاد لـ (ثم) مقدراً على أن الاستبعاد متأتٍ من سياق الجملة لا من الأداة نفسها.

وهذا الإشكال ضعيف ؛ لأن الاستبعاد لا ينفي التراخي في (ثم) بل يثبتّه ويزيد عليه هذا المعنى الدلالي ؛ ولأن السياق لا يمكن وحده أن يثبت معنى الاستبعاد بدون (ثم) ، الا ترى لو حذفنا (ثم) واستبدلت بـ (الفاء) مثلاً ، هل يبقى معنى للاستبعاد؟

والغريب في الأمر أن أبا حيان أيضاً ذكر في تفسير قوله تعالى : ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ)) [آل عمران : 23] ، فقال في قوله تعالى : ((ثم يتولى فريق منهم " هذا استبعاد لتوليهم بعد علمهم بان الرجوع إلى كتاب الله واجب))⁽¹⁹⁾ ، وقال أيضاً في قوله تعالى : ((ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسَكُمْ)) [البقرة : 85] ، : ((هذا استبعاد لما أخبر عنهم به من القتل والإجلاء والعدوان ...))⁽²⁰⁾ ، ويمكن القول إن الاستبعاد في (ثم) لم يتطرق إليه احد قبل الزمخشري ؛ لأن له تدقيقات وبلغات في النص القرآني يكشف فيها عن دلالاتها وإثرائها ؛ لذا تابع الزمخشري في إثبات هذا المعنى لـ (ثم) جماعة من النحاة والمفسرين كالرضي في شرحه لكافية ابن الحاجب ، وقد تقدم كلامه⁽²¹⁾ ، وقد تابع الزمخشري جماعة من المفسرين منهم أبو السعود⁽²²⁾ والشوكاني⁽²³⁾ والالوسي⁽²⁴⁾ ، وقد أحسن الالوسي بقوله : ((واستعمال (ثم) للاستبعاد كثير ... كما تقول : تسيء اليّ ثم ترجو إحساني))⁽²⁵⁾ ، وستأتي بعون الله تعالى الأدلة القرآنية الوافية الدالة على إثبات معنى الاستبعاد وتضعيف رأي الشيخ أبي حيان وان الاستبعاد لا يعارض التراخي فيها بل يساوقها.

المبحث الثاني

ادلة الاستبعاد ونقض كلام الشيخ

الآيات القرآنية التي وردت فيها (ثم) ودلالاتها على الاستبعاد علاوة على معنى الترتيب والتراخي قوله تعالى : ((ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ)) [البقرة : 74]⁽²⁶⁾ ، فيها (ثم) مع دلالتها على الترتيب والتراخي ، فهي اضافت معنى دلاليًا وهو الاستبعاد ؛ لأن ما قبلها من النعم المتوالية توجب رقة القلب ، وهي قوله تعالى : ((فَلَمَّا أَضْرَبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ...)) [البقرة : 73] أي : من بعد احياء الله تعالى الميت لكم بعضو من أعضاء البقرة⁽²⁷⁾ ، فالاستبعاد معنى دلالي لطيف منظور اليه في الآية الكريمة لا من السياق وحده ، بل الأداة تنبأ عنه ، كما تقول لمن أنعمت عليهم بنعم وهو لا يشكرها ، فنقول : ثم بعد ذلك أنت لا تشكر ، يعني : يستبعد حصول العناد والاستبعاد بعد ما صنع معه ، ويتجلى الاستبعاد في (ثم) من حيث الصورة النقية في الآية فقد شبهت قساة الإسرائيليين بالحجارة أو اشد وهذا التشبيه غاية في بعد حالهم⁽²⁸⁾.

ومن الآيات الكريمة التي تدل فيها (ثم) على الاستبعاد هي قوله تعالى : ((وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَآتِفُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسَكُمْ)) [البقرة : 84 - 85] ، فـ (ثم) للاستبعاد ؛ لانهم بعد ما كان لهم من الميثاق والشهادة عليه وافرارهم عليه ، فبدت منهم هذه الأمور المنكرة من قتل بعضهم لبعض واجلائهم من ديارهم⁽²⁹⁾ ، ومن الأدلة على ان (ثم) هنا للاستبعاد ان العكبري قال في (ثم) الأولى في الآية الكريمة (ثم أقررتم) فقال : ((فيه وجهان : أحدهما : أن (ثم) على بابها في افادة العطف والتراخي والمعطوف عليه محذوف ، تقديره فقبلتم ثم : قررتم. والثاني : ان تكون (ثم) جاءت لترتيب الخبر لا لترتيب المخبر عنه كقوله تعالى : ((ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ)) [يونس : 46]⁽³⁰⁾.

ففي نص العكبري دليل على ان (ثم) متعددة الدلالة ، وقد تخرج عن المعنى الترتيبي الى معنى اخر كما في قوله تعالى مثلا : ((وَأَمَّا ثَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيْكَ فَاِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ)) [يونس : 46] ، ف (ثم) هنا غير مقتضية ترتيباً في المعنى ، وانما رتبنا الاخبار بعضها على بعض ، كقولك : زيدٌ عالمٌ ثم هو كريم ، فليس المقصود ان الكرم مؤخر في الرتبة ، بل المقصود الاخبار ان فيه صفتين هما العلم والكرم ، فرتبت احدهما على الاخرى⁽³¹⁾، كقول الشاعر :

إن من ساد ثم ساد أبوه
ثم قد ساد قبل ذلك جدُّه⁽³²⁾

فالبيت ترتيب الاخبار لا ترتيب الحكم⁽³³⁾، اي: ترتيب معاني الممدوح ، فابتدأ بسيادته ثم بسيادة أبيه ثم بسيادة جده ، وان كانت سيادة الاب مقدمة في الزمان على سيادة نفسه، وكون (ثم) تأتي للاستبعاد ، فهذا المعنى ليس غريباً ، فقد ذكروا ان (كيف) تدل على معنى يقصد به الاستبعاد ، وشاع عن العرب قولهم : اني لا اركب الخيل فكيف الحمير⁽³⁴⁾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ((أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ أَوْثُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ)) [آل عمران : 23] ، فقوله تعالى : ((ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ)) استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع اليه⁽³⁵⁾، قال البقاعي : " لما كان اتباعه واجباً واضحاً نفعه لمن جرد نفسه عن الهوى ، عبر عن مخالفته بأداة البعد فقال (ثم)⁽³⁶⁾ ، ومما يدل على ان (ثم) هنا للاستبعاد علاوة على معنى الترتيب والتراخي ، انه - تعالى - امهلهم على تلدهم وتبلدهم في ذلك بما يوقعه - عز وجل - من المقت والتحير على من دُعي الى حق فآباه ، فالآية الكريمة امرت اليهود بالرجوع الى كتاب الله (وهو هنا التوراة) ، ليكون حاكماً بينهم في خلافاتهم ، لكنهم تولوا عن مجلس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واتبعوا هذا الحكم والقضاء ووضعوا أيديهم على نص التوراة ، لكي لا يبصروا ، مع علمهم واعترافهم بوجوب الرجوع اليه ؛ لأنه كتابهم ، ف (ثم) للاستبعاد لا للتراخي مع كونها بأصل معناها دلت على الامهال⁽³⁷⁾ .

ومما يقوي ان (ثم) للاستبعاد ايضاً التعليل في الآية اللاحقة لهذه الاية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)) [آل عمران : 24] ، أي : الحامل والباغي لهم عن التولي والاعراض والاستبعاد هو ظنهم كذا وكذا⁽³⁸⁾ ، وايضا هناك دليل اخر من الآية نفسها يدل على ان (ثم) تفيد الاستبعاد ، هو صدر الآية الكريمة وهو التعجب من حالهم وامرهم ، والتعجب يكون عادة من المستبعد ، او مما لا يعقل ، لذا قالوا : اذا عُرِفَ السبب بطل العجب ، فيوجود العجب يستلزم وجود المستبعد لزوم السبب والمسبب فتأمل ، والله درّ الطبري اذ يقول : " ومعنى قوله : ((ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ)) [آل عمران : 23] ، ثم يستدبر عن كتاب الله الذي دعا الى حكمه معرضاً عنه منصرفاً ، وهو بحقيقته وحجته عالم"⁽³⁹⁾ .

والاستدبار لازمه الاستبعاد ؛ لان من ادبر عن شيء فقد استبعده ، فاللفظان يأخذ احدهما بحجزة الاخر حذو القذة من القذة؛ لذا فالتراخي في (ثم) رتبي لا حقيقي⁽⁴⁰⁾ ؛ لان إثبات نصيب من الكتاب اليهم هو نعمة عظيمة يجب ان يتحاكموا اليه لا ان يعرضوا عنه ويؤخروا رتبته ، مقدمين الاهواء والتأويل عليه ، وقد اثبت أبو حيان الاستبعاد في الآية الكريمة كما تقدم ، قال الالوسي : " وثم للتراخي الرتبي ، وفيه استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع اليه"⁽⁴¹⁾ ، وفي نص الالوسي دلالة على ان (ثم) باقية على الترتيب والتراخي ويضاف اليها دلالة أخرى من القرآن الكريم ، وهو الاستبعاد ، ومعنى التراخي الرتبي انهم قد يتولون اثر الدعوة ، أي: بعد ان يدعوا الى كتاب الله - تعالى - ، فيظهر الاعراض منهم ، لكن (ثم) هنا لوحظ فيها التعجب والاستبعاد من حالهم ؛ لانهم كيف يتولون بعد ان اوتوا الكتاب ونقلوه⁽⁴²⁾ ، فتقرر ان التراخي في (ثم) له دالتان : الأولى : استبعاد توليهم ؛ لأنه خلاف الأصل الذي يكون عليه المؤمن ، الثانية : انهم اذا دعوا الى حكم الكتاب يتولى ذلك الفريق بعد تردد وترو في القبول وعدمه ، وكان الاجدر بالمؤمن الا يتردد في اجابة الدعوة الى حكم كتابه ، فانظر الى دلالة (ثم) كيف اشتملت على الاستبعاد كلوحة فنية تصور معتقدهم⁽⁴³⁾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ((وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ)) [المائدة : 32] ، هذه الآية الكريمة جاءت بعد امره تعالى بني إسرائيل بان من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن احيائها فكأنما احيا الناس جميعاً ، ثم عقبته الآية الكريمة الى ان رسل الله - تعالى - جاءت بهم بالحجج الواضحات ومع وضوحها وارسال الرسل تترى وتجديد العهد مرة أخرى ، فجاءت (ثم) للتراخي في الرتبة والاستبعاد ، فهمم بعد هذه الحجج الواضحة مسرفون⁽⁴⁴⁾ ، منهم عالمون بمعاصي الله ، ومخالفون لأمره - تعالى - ونهيه ، ومعادو الله ورسوله باتباعهم اهواءهم وخلافهم على انبيائهم⁽⁴⁵⁾ .

ومما يدل على ان (ثم) للاستبعاد ان قوله تعالى : ((لمسرفون)) وصف دال على تعليق الحكم عليه ، فكأنهم لما لازموا الاسراف بعد البيان والهيئات ، دل ذلك على بعد ما بينهما ، وأيضا ان الاسراف هو التباعد عن حد الاعتراف ؛ لذا جاء القرآن الكريم : ((وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)) [الأعراف : 31] أي : منعت الاسراف وهو التجاوز والتباعد في كل شيء ، وهكذا كل فضيلة تحسب اذا باينت الاسراف⁽⁴⁶⁾ ، قال الالوسي : ((اخبر - تعالى - ان الاسراف والفساد فيهم هذا مع مجيء الرسل بالبينات من الله ، وكان مقتضى مجيء رسل الله بالحجج الواضحة ان لا يقع منهم اسراف وهو المجاوزة في الحد ، فخالفوا هذا المقتضى)) ، قال الشوكاني : ((ثم ان كثيرا منهم) للتراخي الرتبي والاستبعاد العقلي))⁽⁴⁷⁾ ، والتراخي الرتبي تكمن دلالاته هنا ؛ لان مجيء الرسل بالبينات شيء عجيب ، وهم مع عظمة الرسل وكثرة محيئهم اليهم يسرفون في الأرض ، فصنيعهم اعجب ، لذلك جاءت (ثم) لإتمام هذه الصورة الفظيعة من الأفكار والاسراف والافساد في الأرض من قبلهم⁽⁴⁸⁾ .

ومن الأدلة على كون (ثم) للاستبعاد ان النص يشير الى جانب من سلوك بني إسرائيل وهو القتل ، وهو امرٌ مستبعد بل لم يفعل امة من الأمم انها قتلت انبياءها غيرهم ؛ لانهم معروفون بجرائم القتل⁽⁴⁹⁾ ، ومما يقوي ان (ثم) للاستبعاد وجود القسم في قوله تعالى : ((ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) فالله - تعالى - يقسم بأن رسلة أتت بني إسرائيل الذين ذكر قصصهم واخبارهم ، ومع ذلك قابلوهم بالاسراف ، وقال أبو جعفر الباقر (عليه السلام) في بيان معنى الاسراف : ((المسرفون هم الذين يستحلون المحارم ويسفكون الدماء))⁽⁵⁰⁾ ، وأيضا دلالة (ثم) على الاستبعاد هنا لكون ما قبلها وما بعدها دال على التعجب وتأتي هي متوسطة لتوصل التوكيد الى التوكيد ، فما قبلها توكيدان وما بعدها ثلاثة توكيدات ، وتأتي هي سادس خمسة .

ومن ذلك قوله تعالى : ((قل ارأيتم ان أخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصنفون)) [الانعام : 46] .

فالآية الكريمة امرت رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بتكرير التثبيت عليهم وتثنية الالزام ؛ لتأكيد الحجة عليهم ، والاستفهام في قوله تعالى ، (من اله غير الله يأتيكم به) للتوبيخ ، ثم امرت الآية الكريمة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنظر في تصريف الآيات الباهرات وعدم قبولهم لها تعجيباً له من ذلك ، وبعد هذه الدلائل وهذه الآيات التي يصرفها الباري - تعالى - من اسلوب الى أسلوب ، تارة انذار ، وتارة إعدار ، وتارة ترغيب ، وتارة ترهيب ، بعد هذه كلها جاءت (ثم) الدالة على استبعادهم وانكارهم ، فقالت الآية الكريمة (ثم هم يصنفون) أي : يعرضون عنها مكذبين لها ، وهذا هو محط التعجب والعمدة فيه⁽⁵¹⁾ ، ومن أدلة كون (ثم) للاستبعاد ان في قوله تعالى ، ((انظر كيف نصرف الآيات ... ، تنبيهاً على ان الله - تعالى - قد مكنهم من الاقبال على ما ورد عليهم من البيان ، وانه لم يخلق فيهم الاعراض عنه ولا حملهم عليه ، ولا إرادة منهم ، ولا زينة لهم ؛لأنه لو كان فعل شبيهاً من ذلك لم يكن لتعجيبه من ذلك معنى⁽⁵²⁾ ، اي : كيف نتابع عليهم الحجج ونبههم بالعبير عن الادكار والاعتبار يعرضون ، وصدف : بمعنى عدل واعرض ، يقال : صدف فلان عني بوجهه فهو يصدف صدفاً وصدوفاً⁽⁵³⁾ ، فورود (ثم) للترتيب الرتبي والاستبعادي ؛ لانها تؤذن بأن الجملة المعطوفة ادخل في الفرض المسوق له الكلام ، وهو هنا للتعجب من قوة الأدلة وان استمرار الاعراض والمكابرة مع ذلك اجدر بالتعجب به⁽⁵⁴⁾ ، ، والله در الفخر الرازي؛ اذ يقول ((مع هذه المبالغة في التفخيم والتتوير والايضاح والكشف انظر يا محمد انهم كيف يصدفون ويعرضون))⁽⁵⁵⁾ ، قال أبو السعود : ((ثم) لاستبعاد صدوفهم ، أي : اعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للإقبال عليها))⁽⁵⁶⁾ ، ومنه قوله تعالى : ((وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ وَمَالُكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)) [هود : 113] .

أشارت الآية الكريمة الى انه يجب ان لا يميل المسلمون ادنى ميل الى الذين ظلموا حتى لا تسهم النار بسبب ذلك ، فذكرت الآية السبب في عدم الركون الى الظلم ، ثم انتقلت الآية ((وَمَالِكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ)) أي : مالهم من انصار ينقذونهم من النار⁽⁵⁷⁾، و(ثم) للتراخي الرتبتي ، أي : استبعاد أن يأتيهم النصر واستبعاد ان يخفف عنهم مس العذاب ولا يمكن الإخراج منها ، فهنا معنى (ثم) واضح انه يفيد الاستبعاد⁽⁵⁸⁾، ومما يقوي الاستبعاد في (ثم) هنا انها آتية بعد النهي ، والنهي متناول لانحطاط في هواهم ، والانقطاع اليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم ، والتزبي بهم بزيهم ، ومد العين الى زهرتهم ، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم ، فهذا الكلام بما قبل (ثم) وما بعدها يدل على ان (ثم) جاءت لتوصل الكلام وتربط بعضه ببعض لإيصال اثبات هذا المعنى الاستبعادي فيها، ومنه قوله تعالى : ((وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)) [البقرة : 92] ، ومما يدل على ان (ثم) هنا للاستبعاد ان صدر الآية ذكرت الركون وهو الميل ، والميل يقتضي المساعدة من المائل اليه، فجاءت (ثم) لتدل على استبعاد ذلك ، وان هذا هو حكم من مال ورافق الظالم ، فكيف بالظالم نفسه⁽⁵⁹⁾؟، لذا تساءل الزمخشري عن معنى ثم (هنا) فقال : ((فإن قلت : فما معنى (ثم) قلت: معناها الاستبعاد ؛ لان النصره من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته)⁽⁶⁰⁾، وقد اكد البيضاوي ان (ثم) للاستبعاد بمعنى ان النصر مستبعد عنهم ، وقد اوعدهم بالعذاب عليه وواجبه لهم)⁽⁶¹⁾ ، والدليل أيضاً على مجيء (ثم) للاستبعاد لا ان السياق وحده هو ان بعض المفسرين جعل (ثم) بمنزلة (الفاء) لمعنى الاستبعاد ، وهذا يدل دلالة واضحة على الاستبعاد من (ثم) مفهومة من السياق⁽⁶²⁾، ومن الأدلة أيضاً على كون (ثم) للاستبعاد هو ان جملة (وما لكم من دون الله من أولياء) جملة حالية من مفعول (فتمسكم النار) ، وكون الجملة حالية لتدل ايضاً على ان المنفي بها هو نصره الله تعالى ، والمنفي بـ (ثم) مطلق النصره ، فالاستبعاد بـ (ثم) أبلغ⁽⁶³⁾ ، فاذا كان حالهم ليس لهم أولياء ، فمن اين تأتي النصره ؛ لذا جاءت (ثم) على هذا النسق والربط لا ثبات هذا المعنى ، وبدون (ثم) يحتمل السياق ؛ لأنه قد يقال ان عدم النصر ، غير مستبعد ، وانما المستبعد هو نصر الله - تعالى - لهم⁽⁶⁴⁾ ، فمجيء (ثم) هنا لا للدلالة لما بعدها وهو استبعاد نصر الله تعالى فحسب بل هي جاءت هنا ولم تأت الواو ولا الفاء ؛ لأنه قد يتصور ان الأولى هنا مجيء الفاء التفريعية المقارنة للنتائج ؛ اذ المعنى ان الله - تعالى - اوجب عليكم عقابه ولا مانع لكم منه ، فإذن انتم لا تتصرون ، فالعدول الى (ثم) الاستبعادية مقصود ؛ لان استبعاد الوقوع يستلزم النفي⁽⁶⁵⁾ ، ومما يعمق معنى الاستبعاد في (ثم) ان الآية الكريمة استعملت الفعل (ركن) مسبوقة بـ (لا) الناهية (والفعل هنا) ركن (دال على الميل والسكون والمودة وتدخل فيه حتى المجاملة ، فكلها محرمة والمداهنة كما قال تعالى : ((وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِئُونَ)) [القلم : 9] ، فمداهنة الظالم والركون في اسلوب النهي في الآية الكريمة كالنهي في قوله تعالى : ((وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى)) [الإسراء : 32] والمستفاد هنا مستفاد هناك حذو القذة بالقذة.

ومن ذلك قوله تعالى : ((وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)) [البقرة : 92].

هذه الآية الكريمة حكمت طريقة اليهود في زمان النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكيف انهم عاندوا وكذبوا ، فمثلهم بسلفهم في قتلهم الأنبياء (عليهم السلام) والبيئات هي الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى : ((ولقد آتينا موسى آيات بينات فاسأل بني اسرائيل اذ جاءهم البيئات فقال له فرعون اني لأظنك يا موسى مثبوراً)) [الإسراء: 101]⁽⁶⁶⁾، وقوله تعالى: (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يتذكرون) الاعراف: 130، وقوله تعالى: (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين) الاعراف: 133، وقوله تعالى: (فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) الشعراء: 63، وقوله تعالى: (واوحينا الى موسى ان الق عصاك فاذا هي تلقف مايافكون) الاعراف: 117، وقوله تعالى: (ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين) الاعراف: 108، الشعراء: 33، فهي العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والدم والطوفان والجراد والقمل والضفادع وقلق البحر⁽⁶⁷⁾ ، وهذه الآية الكريمة جاءت لتقارن بين حالي اليهود في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحالهم في زمان موسى (عليه السلام)⁽⁶⁸⁾، ومما يقوي ان (ثم) للاستبعاد انه لم يكن لهم عذر في ذلك الاتخاذ ؛ لأنه قد بلغت الدعوة وقامت عليهم الحجة لذلك وردت الجملة الحالية بعدها ((وانتم ظالمون)) أي : ليس هناك ظلم اعظم من الشرك بالله⁽⁶⁹⁾، لذلك (ثم) هنا لا مناص انها للاستبعاد ؛ لان الكلام السابق مقيد بـ

(البيئات) ، فمن انته البيئات الواضحات يستبعد ان يجحد ويكفر ، فلا يكون (ثم) لمجرد الترتيب والمهلة بل الاستبعاد هنا معنى ثانوي لها ؛ لانهم فعلوا هذه الافاعيل وهي عبادة العجل والاشراك بالله - تعالى - بعد مهلة من النظر في الآيات ، وهذا اعظم ذنباً وشناعة لحالهم⁽⁷⁰⁾ ، وكون (ثم) للاستبعاد لا ينافي كونها للترتيب والمهلة ؛ اذ وبخهم الله - تعالى - وقرّعهم ، اي : بعد النظر في الآيات او الاتيان بها اتخذتم ، وهذا يدعى انهم انما فعلوا ذلك بعد مهلة ، فمجيء (ثم) هنا للاستبعاد ابلغ⁽⁷¹⁾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ((لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ)) [آل عمران : 111].

عندما رغب - تعالى - المؤمنين في التصلب في ايمانهم وترك الالتفات الى اقوال الكفار وفعالهم في قوله عز وجل : ((كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...)) [آل عمران : 110].

رغبتهم في هذه الآية الكريمة من وجه اخر انه لا قدرة لهم على الاضرار بالمسلمين الا بالقليل من القول الذي لا عبء فيه وهو معنى (اذى) ، فأذية الكفار تكمن في اللسان فقط ، وذلك بالطعن في محمد وعيسى (عليهما السلام) ، او تكمن بالكفر او بالتحريف ، فهنا ضرر الكفار على المسلمين⁽⁷²⁾ .

وبعد ذلك ذكرت الآية الكريمة ان الكفار اذا قاتلوكم يولونكم الاجبار ، اي : يفرعون منهزمين⁽⁷³⁾ ، ف (ثم) للاستبعاد من عدة وجوه :

1. احدها : ان الكلام تم بقوله تعالى : (يولوكم الادبار) ، فقوله تعالى (ثم لا تنصرون) مستأنف ، والدليل على استئنافه ثبوت النون وانه غير معطوف على الجواب ؛ لان جواب الشرط يقع عقيب المشروط ، ف (ثم) هنا للتراخي والاستبعاد ، والاستئناف ابلغ ؛ للدلالة على انهم غير منصورين مطلقاً ، ولو كان معطوفاً لجواب الشرط للزم تقييده ، ولكنها قضية ثابتة منفصلة وليست معطوفة على الشرط ، فعلة عدم النصر ليست القتال بل هي الكفر⁽⁷⁴⁾ ، فالآية الكريمة هنا ليست كما في قوله تعالى : ((ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّتًا لَكُمْ)) [محمد : 38] ؛ اذ هذه الآية الكريمة فيها عطف على الجواب ، في حين اية البحث فيها الاستئناف أولى ؛ ليدل على ان الله - تعالى - ناصرهم قاتلوا او لم يقاتلوا⁽⁷⁵⁾ .

2. هنا الجملة الشرطية فيها الأداة (إن) وهي غالباً تأتي للشيء غير المجزوم به ، فقدد يأتي شك من احد بأن النصر لا يكون للمؤمنين فجااء الاستبعاد والاستئناف في (ثم) للدلالة على عدم الغلبة والنصر للكافرين ، سواء قاتلوا ام لم يقاتلوا كما تقدم في نقطة (1) ؛ لان منع النصر سببه الكفر⁽⁷⁶⁾ .

3. ومما يدل على الاستبعاد ان الاستثناء في قوله تعالى : ((لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَى)) وهو استثناء منقطع ؛ لان هذا الأذى لا يضركم كما قالت العرب : ما اشتكى شيئاً الا خيراً⁽⁷⁷⁾ ، فيكون معنى الاستبعاد في (ثم) متحققاً ليناسب معنى نفي الضرر عن المؤمنين ، فكما ان الضرر منتفٍ عنهم كذلك استبعاد نصر الكفار عليهم طرداً وعكساً ، واذا كان الاستثناء مفرغاً كما قال بعضهم ، فالاستبعاد متحقق ؛ اذ لا يحصل اي اذى⁽⁷⁸⁾ .

4. (ثم) هنا تحمل معنى التراخي في الرتبة ، اي : لا ينصرون من جهة أحد ولا يمنعون منكم قتلاً واخذاً⁽⁷⁹⁾ ، بالإضافة لحملها المعنى الاستبعادي ؛ اذ الاستبعاد مبني على التراخي الرتبي.

5. مما ينصر ان (ثم) استبعادية ان الجملة خبرية أي : جملة (ثم لا تنصرون) ، وهذه الجملة اخبار ووعد من الله - تعالى - بانهم لا ينصرون علينا ما داموا على فسقهم ، وما دما على خيرتنا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله - تعالى - ، فالجملة لا تدخل في جواب الشرط البتة⁽⁸⁰⁾ .

6. هذه الآية من المعجزات ، فلما نزلت (ثم لا تنصرون) ، فلم يخفق لليهود راية نصر ولا اجتمع لهم جيش غلب ، وهذا الامر لا يتحقق الا في معنى الاستبعاد⁽⁸¹⁾ .

7. مجيء (ثم) هنا بهذا المعنى ولم ترد الفاء ؛ لان الفاء يفهم منها نحوياً ودلالياً انهم لا ينتصرون عليكم في بداية عهدكم ؛ لأنها تفيد الترتيب والتعقيب ، اما (ثم) بمعناها الاصلية، فتفيد التراخي من جهة انهم لا ينتصرون وان تطاول بهم العهد ، وانها تفيد هنا الاستبعاد ، وهذا المعنى هو الذي يثبت ويطمئن قلوب المؤمنين وان فيهم صفة الخيرية⁽⁸²⁾.

فان قيل : فقد قامت لليهود دولة في فلسطين ، فكيف نوفق ذلك ؟

ج/ ان نصر الكفار على المؤمنين يدل على ان المؤمنين على غير منهج الله - تعالى - ؛ لذا يتعجب بعضهم كيف ينتصر علينا اليهود ونحن مسلمون ، لكن العلة والسبب اننا على غير منهج وروح الإسلام ، فقد كثرت عندنا النزاعات والعصيان والقوميات والعرقيات ونسبنا مسمى الايمان ، فكيف نطلب النصر من الله - تعالى - ؟⁽⁸³⁾.

ومن ذلك قوله تعالى : ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهَا الْمُجْرِمُونَ ۗ إِنْ أَرَأَيْتُمْ إِذْ مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ...)) [يونس : 50 - 51]

فتشير الآياتان الكريمتان الى تزييف رأي الكفار في استعجالهم العذاب ؛ فجاءت الآياتان لإثبات ان العذاب كله مر موجب لنفار الطبع منه ، فجاءت جملة الاستفهام على سبيل التلطف بهم ، والتنبه لهم على ان العذاب لا ينبغي ان يستعجل⁽⁸⁴⁾.

و (أثم) حرف عطف تقدمت عليه الهمزة التي للإنكار ، و (ثم) حرف عطف يفيد الاستبعاد ، وذلك ؛ لان الايمان صدر منهم في غير وقته ، وفي هذا استجهال لهم ؛ لانهم كانوا يستعجلونه ومكذبون به⁽⁸⁵⁾، ودخول الهمزة الاستفهامية التي تفيد الانكار قرينة مؤكدة على ان (ثم) للاستبعاد لا للتراخي فحسب؛ لان في (ثم) هنا دلالة على عدم نفع الايمان لهم بعد نزول العذاب ، وهو غاية التهويل والتفطيع⁽⁸⁶⁾.

فان قيل : ان الطبري ذكر ان معنى (ثم) في الآية الكريمة بمعنى (هنالك) فقال : ((ومعنى قوله (أثم) في هذا الموضوع : هنالك ، وليست (ثم) هذه هاهنا التي تأتي بمعنى العطف))⁽⁸⁷⁾ ، وكذا الثعلبي⁽⁸⁸⁾.

لكن هذا غير ممكن لان (ثم) حرف عطف معروف عند النحاة ، ولم يرو احد عن العرب ذلك ، قال ابن هشام في المغني ناقداً رأي الطبري : ((وهذا وهم اشتبه عليه (ثم) المضمومة الثاء بالمفتوحاتها))⁽⁸⁹⁾.

نعم هناك قراءة بفتح الثاء (ثم) يمكن ان تناسب قول الطبري ، وعلق أبو حيان على تفسير الطبري (ثم) بـ (هنالك) بقوله : ((وما قاله الطبري من ان (ثم) هنا ليست للعطف دعوى))⁽⁹⁰⁾ ، والقراءة بفتح الثاء (ثم) نقلها صاحب الدر المصون عن طلحة بن مصرّف لكنها غير موجودة في كتب القراءات المعتمدة وحتى الشواذ منها⁽⁹¹⁾.

وهذا مدعاة الى عدم ثبوت هذه القراءة بدليل ان الطبري لو كانت هذه القراءة ثابتة عنده لاستدل على المعنى الذي ذكره ، اذن تبقى (ثم) بضم الثاء وهي عاطفة مفيدة هنا للاستبعاد.

ومن ذلك قوله تعالى : ((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا)) [السجدة : 22].

اشارت الآية الكريمة الى انه لا أحد اظلم ممن وُعط وذكّر بالقرآن ثم اعرض عن آيات الله - تعالى - ، فلم يتفكر فيها ولم يقبلها ولم يعمل بموجبها ، (و) (ثم) للاستبعاد الاعراض عن آيات الله - تعالى - مع غاية وضوحها وإرشادها الى سعادة الدارين وذلك نحو قولهم : دخلت المسجد ثم لم تصل ، وهذا فيه استبعاد ان يدخل المرء مسجداً ثم يترك الصلاة فيه⁽⁹²⁾ ، فد (ثم) دالة على الاستبعاد كما تقدم من كلام البروسوي ، وذكر الشوكاني ان (ثم) للاستبعاد واعقبها بقوله : ((وانه مما ينبغي ان لا يكون))⁽⁹³⁾ ، أي : من جعل الاعراض مكان الاتباع فقد ابعد في المعصية والمخالفة ، ومما يقوي الاستبعاد هنا مجيء الاستفهام المتضمن معنى النفي ، وهو استفهام انكاري⁽⁹⁴⁾ ، فمعنى (ثم) هنا ليس المقصود منه التراخي وهو المعنى الأصلي لها ، بل معناها الاستبعاد ، وهذا

ما صرّح به ابن عاشور بقوله : ((... بحرف (ثم) لقصد الدلالة على تراخي رتبة الاعراض عن الآيات بعد التنكير بها تراخي استبعاد وتعجب من حالهم))⁽⁹⁵⁾ ، فهنا وان ذكر ابن عاشور معنى التراخي لكنه ترقى به الى معنى الاستبعاد والتعجب .

ومن الغريب بالأمر ان أبا حيان الذي ورد عنه كما تقدم اول البحث انه انكر مجيء (ثم) للاستبعاد ، واوكل هذا المعنى الى السياق دون دلالة (ثم) ذاتها ؛ ورد عنه في تفسير هذه الآية الكريمة في نقل كلام الزمخشري ولم يتعقبه بالرد فقال : ((قال الزمخشري (ثم) للاستبعاد ، والمعنى : ان الاعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وانارتها وارشادها الى سواء السبيل ، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذکر بها مستبعد في العقل والعادة ، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها ؛ استبعاداً لتركه الانتهاز))⁽⁹⁶⁾ ، ومما يشهد لمعنى الاستبعاد في الآية الكريمة ونظائرها قول جعفر بن غلبة الحارثي :

لا يكشف الغمّاء الا ابن حُرّة يرى غمرات الموت ثم يزورها⁽⁹⁷⁾

فالشاعر استبعد ان يزور غمرات الموت بعد ان رآها واستيقنتها واطلع على شدتها ، اي: عجيب اقدامه على مواقع الهلاك بعد مشاهدة غمرات الموت تغمر الذين اقدموا على تلك المواقع⁽⁹⁸⁾ .

الخاتمة

بعد هذه الجولة مع المعنى الاستبعادي الدلالي ل(ثم) العاطفة ، وانها تفيد معنىً اضافياً، بعد ذلك يمكن استجلاء ما يلي :

- 1-(ثم) العاطفة تفيد معنى الاستبعاد علاوة على معناها الاصلي وهو الترتيب والتراخي.
 - 2-المعنى الاستبعادي لها ناشئ من تحديد دور المعنى في نظرية النحو.
 - 3-قد تخرج (ثم) الى هذا المعنى بطبيعتها ؛ لأنها تحمل معنى الحركة والتتابع.
 - 4-هناك فرق بين البعد والاستبعاد ، فحاول البحث ايجاد البون بينهما.
 - 5-معنى الاستبعاد ليس غريباً عن الادوات ، فقد استتبطن في بعض الحروف ك(ان) الشرطية.
 - 6-انكر ابو حيان هذا المعنى ل(ثم) وارجع ذلك للسياق لا للأداة.
 - 7- تكفل البحث ببيان ضعف قول الشيخ ابي حيان ، وان الصحيح اثبات الاستبعاد ل(ثم).
 - 8-تضافرت الادلة القرآنية على رسوخ معنى الاستبعاد في(ثم) العاطفة، وفي اثبات هذا المعنى يتحصل في ادوات العطف المعنى الترابطي مع المعنى الاثرائي.
- هذا واسأل الله العلي العظيم ان اكون قد وفقت في عرض هذا المعنى الدقيق واعطائه حقه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الخيرين.

الهوامش

- (1) ينظر شرح الرضي للكافية: 389/4.
- (2) نمط صعب ونمط مخيف : 212
- (3) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان : 225، النحو والدلالة ،د. محمد حماسة عبد اللطيف: 25-35.
- (4) ينظر : البرهان للزركشي: 175/4.
- (5) ينظر : الإلتقان للسيوطي : 223/2 ، وينظر : شرح الكافية الشافية لابن مالك : 1258/3 - 1259 ، وشرح المفصل: 14/5 - 15.
- (6) الكشاف للزمخشري: 145/2.
- (7) ينظر : التحرير والتنوير : 292/1، وينظر : تفسير البغوي 315/592، وينظر ايضاً: مصابيح المغاني في حروف المعاني: 184.
- (8) ينظر : ديوان القطامي: 37.
- (9) ينظر : التحرير والتنوير : 562/1.
- (10) وردت الآية الكريمة بالكاف ثلاث مرات في الكتاب العزيز ،مرتين في سورة الأنعام بلفظ (أرأيتمكم آية 47، 40)، ومرتين بلفظ (أرأيتمكم) في سورة الإسراء (62) .
- (11) ينظر البرهان : 151/4.
- (12) ينظر : تفسير الكشاف : 7/2.
- (13) شرح الرضي : 389/4.
- (14) ينظر التحرير والتنوير: 317/11.
- (15) الدر المصون : 282/6، وينظر تفسير الطبري: 313-314.
- (16) ينظر: تفسير البغوي : 438/2، وينظر :معاني القرآن الفراء: 3/2-4.
- (17) ينظر : دور الحرف في أداء معنى الجملة ، للصادق خليفة راشد : 183 - 186.
- (18) ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها : 104.
- (19) البحر المحيط : 81/3.
- (20) المصدر نفسه : 466/1.
- (21) ينظر: ص 4 من البحث.
- (22) ينظر : تفسيره : 115/1 ، 124 ، 86/7.
- (23) نظر : فتح القدير على سبيل المثال : 113/2.
- (24) ينظر : تفسيره : 294/1 ، 305/14 ، 136/15.
- (25) روح المعاني : 136/15.
- (26) تفسير الكشاف : 155/1.
- (27) ينظر : معاني القرآن واعرابه للزجاج : 155/1 ، اعراب القرآن وبيانه للدرويش : 124/1.
- (28) ينظر : التفسير البنائي للقرآن الكريم : د. محمود البستاني : 51/1 - 52.
- (29) ينظر : تفسير الكشاف : 160/1 ، وتفسير ابي السعود : 124/1.
- (30) التبيان : 85/1 - 89.
- (31) ينظر : التبيان للعكبري : 276/2.
- (32) ينظر : اوضح المسالك : 328/3.
- (33) ينظر : حاشية الصبان على شرح الاشموني : 139/3، وهمع الهوامع : 195/3.
- (34) ينظر : شرح الكافية : 94/3.
- (35) ينظر : تفسير ابي السعود : 20/2.
- (36) نظم الدرر : 303/4.
- (37) ينظر : فتح البيان للفتوجي : 210/2.

- (38) ينظر : زاد المسير لابن الجوزي : 368/1.
- (39) تفسير الطبري : 296/5.
- (40) ينظر : حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي : 14/3.
- (41) روح المعاني : 107/2.
- (42) ينظر : التحرير والتنوير : 210/3.
- (43) ينظر : تفسير المنار : 319/3.
- (44) ينظر : تفسير ابي السعود : 30/3.
- (45) ينظر : تفسير الطبري : 359/8.
- (46) ينظر : تفسير ابي السعود : 30/3.
- (47) فتح القدير للشوكاني : 40/2، وينظر : فتح البيان للفتوحجي : 40/2.
- (48) ينظر : التحرير والتنوير : 179/6.
- (49) ينظر : التفسير البنائي للقرآن الكريم : 384/1.
- (50) ينظر : التبيان للطوسي : 502/3.
- (51) ينظر : فتح البيان للفتوحجي : 144/4 ، وينظر : تفسير البيضاوي : 162/2.
- (52) ينظر : التبيان للطوسي : 139/4.
- (53) ينظر : المفردات : للافصهاني : 478، تفسير الطبري : 252-9/9 ، وفتح القدير : 134/2.
- (54) ينظر : التحرير والتنوير : 226/7.
- (55) التفسير الكبير : 536/12.
- (56) ارشاد العقل السليم : 134/3.
- (57) ينظر : تفسير ابي السعود : 245/4 ، تفسير ابن كثير : 204/4.
- (58) ينظر : البحر المحيط : 221/6.
- (59) ينظر : التفسير الكبير : 407/18.
- (60) الكشاف : 434-2/2.
- (61) ينظر : تفسير البيضاوي : 151/3.
- (62) ينظر : المصدر نفسه.
- (63) ينظر : روح المعاني : 349/6.
- (64) ينظر : المصدر نفسه.
- (65) ينظر : تفسير الطبري : 601/12 ، تفسير الشعراوي : 6715/11.
- (66) ينظر : تفسير الرازي : 413/21، فتح القدير للشوكاني : 311/3.
- (67) ينظر : تفسير ابي السعود : 130/1 ، تفسير ابن كثير : 219/1.
- (68) ينظر : تفسير الرازي : 604/3.
- (69) ينظر : تفسير المنار : 319/1.
- (70) ينظر : روح المعاني : 325/1.
- (71) ينظر : تفسير القرطبي : 30/2.
- (72) ينظر : تفسير الرازي : 327/8.
- (73) ينظر : التحرير والتنوير : 54/4 ، تفسير البغوي : 196/1.
- (74) ينظر : الدر المصون : 352/3، تفسير الشعراوي : 1680/3.
- (75) ينظر : التبيان للعكبري : 285/1 ، اعراب القرآن للنحاس : 175/1.
- (76) ينظر : البحر المحيط : 304/3.
- (77) ينظر : تفسير الطبري : 678/5 ، تفسير الثعلبي : 129/3.
- (78) ينظر : فتح القدير : 426/1.
- (79) ينظر : تفسير المنار : 55/4.

- (80) ينظر : المصدر نفسه.
- (81) ينظر: فتح البيان للفتوحى : 313/2 ، وينظر : تفسير ابي السعود : 72/2.
- (82) ينظر : تفسير الشعراوى : 1681/3.
- (83) ينظر تفسير الشعراوى : 1682/3.
- (84) ينظر : التفسير المحيط : 68/6 ، فتح البيان للفتوحى : 76/6.
- (85) ينظر : فتح البيان للفتوحى : 77/6.
- (86) ينظر : فتح القدير للشوكانى : 513/2.
- (87) تفسير الطبرى : 190/12.
- (88) ينظر : الكشف والبيان : 134/5.
- (89) مغنى اللبيب : 162.
- (90) البحر المحيط : 70/6.
- (91) ينظر : الدر المصون : 217/6.
- (92) ينظر : روح البيان : 94/7.
- (93) فتح القدير : 294/4.
- (94) ينظر : فتح البيان للفتوحى : 31/11.
- (95) التحرير والتنوير : 233/21.
- (96) البحر المحيط : 440/8 ، وينظر : الكشف : 515/3.
- (97) ينظر : ديوان الحماسة للمرزوقى : 5/1.
- (98) ينظر : الكشف : 515/3 ، التحرير والتنوير : 234/21.